الروح الإسلامية في شعر شاعر النيل

(حافظ إبراهيم)

د . سليمان محمد سليمان

أستاذ الأدب والنقد المساعد بآداب سوهاج

تمهيد:

إن الدين فطرى في النفس الإنسانية، فهو ينشأ مع الإنسان، منذ طفولته، فيمتزج بكيانه، ويسري في عروقه ويتغلغل في أعماقه، ويبعث فيها ضياء الحق والحقيقة، وأنوار الحب والفضيلة، ويحيلها إلى واحة من الطهر والصفاء.

تلك هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها. وإذا ما توفر لهذه الفطرة نفس شاعرة، ورُوحٌ مُلْهمة؛ سمت العاطفة الدينية، وأضفت على الشعر ملامحها.

والآداب العالمية كلها لا تخلو من الشعر الديني... فإذا ما رجعنا إلى نشأة الآداب عند مختلف الأمم وجدنا أن العاطفة الدينية كانت من أقوى العوامل الفعالة في النشأة ثم ظلت من أقوى العوامل كذلك في نماء الأدب وتوجيه جزء كبير منه لإرشاد الإنسانية وتوجيهها إلى سلوك الطريق المستقيم طوال العمر.(١)

ففي الأدب الألماني... نجد أصداء العهد القديم فقد أثبت رجال الأدب الألماني تأثر "جيته" بسفر أيوب في عمله الأدبي الخالد "فوست".(٢)

---

(١) العامل الديني في الشعر المصري الحديث للدكتور/ سعد الدين محمد الجيزاوي ص٦٠. دار الفكر العربي، مصر.

(٢) قصة الأدب في العالم، تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، جـ١/٩٨، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

وكذلك في الأدب الإيطالي يكفي أن نشير إلى الكوميديا الإلهية لدانتي وكان صاحب فلسفة في الهداية والإيمان. فالعقل عنده مرشد يهديه إلى الطريق المستقيم ولكنه يضل إن لم يسر في حدود الدين ... وتعاليم الكنيسة.

وإذا ما رجعنا إلى الأدب الفرنسي وجدنا شعراء كثيرين قد تأثروا بالنزعة الدينية ... وكانت لأشعارهم آثار بعيدة المدى في الحياة العلمية[1]. وهذا ما حدث في الأدب؛ حيث نجد حسان بن ثابت – شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم – قد تولى الدفاع عنه وخاض الكثير من المعارك هو وإخوانه ضد شعراء المشركين ومعسكر الكفر.

فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر وسيلة للدفاع عن الإسلام وذلك حين قيض حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وهم من شعراء المدينة في ذلك الوقت للدفاع عن الإسلام بشعرهم وقال حين قام حسان لهم "هجاهم حسان فشفى واشتفى".[2]

وجاء قوله لحسان أيضاً "قل وروح القدس معك."[3]

وقد ظل هذا التيار الديني في الشعر العربي، يعرف طريقه، ويؤدي رسالته، عبر العصور الأدبية عامة.

هذا، وقد تجلّى هذا الشعور الديني في العصر الحديث في شعر كثير من شعرائه، وكان الدافع الحقيقي وراء دعوتهم إلى الوقوف في وجه أعداء الأمة الإسلامية؛ وحرصهم على بيان عظمة الإسلام وعدل حكامه الأوائل، والدعوة

---

(١) العامل الديني في الشعر المصري الحديث للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوي، ص ٦٧.
(٢) راجع صحيح مسلم جـ٢/ ١٠٣٤.
(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ص١٧. تحقيق محمد محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

إلى توحيد الأمة، والإشادة برجال الدين والمصلحين من رواد هذا العصر مستمدين من القرآن والحديث، وسير الخلفاء والصالحين والمصلحين؛ زادهم ومادتهم.

وقد كان من هؤلاء الشعراء في هذا العصر؛ بل على رأسهم جميعاً – الشاعر حافظ إبراهيم الذي وقع اختيارنا عليه محاولين البحث عن الروح الإسلامية في شعره. إذ لم يكن حافظ شاعر مصر وحدها بل كان شاعر العروبة والإسلام، فكان فؤادها الخافق ولسانها الصادق فهو يدرك أن ماضي مصر وحاضرها ومستقبلها جزء لا يتجزأ من الأمس واليوم والغد العربي والإسلامي المشرق.

والعروبة عند حافظ تكاد تكون هي الإسلام: ولسان العروبة الناطق هو القرآن، أو قل القرآن الناطق بلسان العرب "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ"(١).

وهذا كله يجعلنا نقول: إن قضية العروبة في شعر حافظ ومعاصريه لم تكن منفصلة عن قضية الإسلام، فالوطن العربي هو قلب العالم الإسلامي بوصفه مهبط القرآن الكريم ومنه انتشر الإسلام في ربوع الدنيا. فهو منبت الحضارة الإسلامية وحامل مشعلها. ولذا عبر حافظ عن إحساسه المتوقد بالتراث العربي في الدين والدولة والحضارة، وتبدى وقوف حافظ إلى جانب الخلافة العثمانية فهي الجامعة لشمل المسلمين، والخليفة هو الممثل لدولة الخلافة التي تقاتل من أجل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الدين. فكثيراً ما نجده يهنئ السلطان عبد الحميد بمناسبة جلوسه على عرش الخلافة، وشعوره بالرضا وافتخاره بكل ما تقوم به دولة الخلافة العثمانية. فالنزعة الإسلامية التي رأيناها واضحة في كُتّاب العصر وقادته ومفكريه. نستطيع أن نتتبعها في الشعر

(١) سورة الشعراء، الآية ١٩.

فنجدها في مثل هذا الموضوع. فليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك، على اختلافهم وتباين نزعاتهم؛ من يخلو ديوانه من شعر في مدح الخليفة التركي والإشادة بفضله على المسلمين، وحرصه على إعلاء كلمة الدين، وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره في حروب تركيا وأحداثها الجسام"[1].

ولا غرابة فلقد كانت النزعة الإسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في الاعتراف بسلطة الخليفة التركي".[2]

ولا شك أن حافظ إبراهيم يأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين تتجلى الروح الإسلامية في أشعارهم. وهو وإن كان قد أسهم مع شوقي في إحياء دولة الشعر والمحافظة عليها وقتذاك – مع تميز شوقي بالزعامة لأسباب معروفة – فإنه قد امتاز عن شوقي بنشأته البسيطة، وحياته الشعبية اللتين جعلتاه أقرب إلى روح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصويري آلامه التي أحس بها وشاركهم فيها[3]. ومن ثمّ كانت النزعة الإسلامية واضحة في قصيدته العُمرية التي قصرها على عمر بن الخطاب وأعماله، كما تبدو في شعر كثير له نظمه في الخلافة العثمانية، إذ كان المسلمون يتجهون إليها في أول القرن كما يتجهون إلى مكة، فهذه قلب الإسلام الخافق وتلك سنده الذي يذود عنه بالسلاح"[4].

ولهذا كله كان اختيارنا لهذا الموضوع بعنوان : الروح الإسلامية في شعر شاعر النيل ' حافظ إبراهيم" ومعالجته من خلال المحاور الآتية:

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. للدكتور محمد محمد حسين، جـ١/١١، مكتبة الآداب.

(٢) المرجع السابق، جـ١/ ١.

(٣) شعراء الوطنية في مصر، تأليف عبد الرحمن الرافعي، ص١٢٢.

(٤) الأدب العربي المعاصر في مصر، للدكتور شوقي ضيف، ص ١٠٩، دار المعارف، الطبعة التاسعة.

أولاً : حافظ إبراهيم : نشأته الدينية وثقافته الإسلامية وأثرهما فى شعره.

ثانياً : أبرز القضايا التى تناولها فى شعره الإسلامى :

١- الحاكم الإسلامى وما ينبغى أن يتوفر فيه من قيم.

٢- الخلافة الإسلامية وأثرها. (الخلافة العثمانية نموذجاً).

٣- وحدة الصف العربى وتوثيق الروابط بين الأقطار الإسلامية.

٤- الاحتفاء بالشعائر والمناسبات الدينية؛ وتقدير الدعاة والمصلحين من أبناء الأمة الإسلامية.

ثالثاً : الخاتمـــــــــــة.

- ثبت المصادر والمراجع.

أولاً –حافظ إبراهيم :

نشأته الدينية وثقافته الإسلامية وأثرهما في شعره:

هو محمد حافظ ابن المهندس إبراهيم فهمي، أحد المهندسين المصريين الخلّص المشرفين على قناطر ديروط، الذى رزق بابنه حافظ وهو يقيم في "ذهبية" كانت راسية على شاطئ النيل سنة ١٨٧٢م .. أما أمه فهي السيدة "هانم بنت أحمد البورصه لي" من أسرة تركية محافظة. تسكن حي المغربلين، أحد الأحياء الشعبية القديمة بمدينة القاهرة...، وبذلك اجتمع في حافظ دمان، دم مصري صميم مستمد من والده، ودم تركي نقي من والدته، ومن مجموع خصائص كلا الدماءين وتفاعلهما في نفس حافظ وتكوينه تكونت شخصيته وبرزت خصائصه ومميزاته.(١)

ويعلق المرحوم الأستاذ أحمد أمين علي ولادة حافظ على صفحة النيل، بأنه "كان إرهاصاً لطيفاً، وإيماء طريفاً، إذ شاء القدر ألا يولد شاعر النيل إلا على صفحة النيل"، وقد أُنعِم على حافظ بنيشان النيل حيث أطلق عليه بعد ذلك لقب شاعر النيل وإن كان يفضل دائماً أن يلقب بالشاعر الاجتماعي، إذ كان يرى أن النيل جزء من العروبة والعروبة جزء من الشرق والإسلام وهو شاعر العروبة والشرق والإسلام بالمضمونين الاجتماعي والوطني.(٢) هذا عن ولادته، أما عن تربيته فقد "عاش في كنف أبيه أربع سنوات، وبعد موت أبيه عادت به أمه من ديروط إلى بيت أسرتها. ولما كان جدّ حافظ قد توفى قبل مولده، فقد

---

(١) راجع ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه، أحمد أمين – أحمد الزين– إبراهيم الأبياري. المقدمة ص١٨: ١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧، الطبعة الثالثة. وانظر أيضا حافظ إبراهيم شاعر النيل للدكتور عبد الحميد سند الجندي، ص١٥ وما بعدها، دار المعارف، الطبعة الرابعة.
(٢) راجع مقدمة الديوان، ص٢٧: ٢٨.

تولى أمره وأمر الأسرة الصغيرة خاله محمد نيازي الذي كان مهندساً بتنظيم القاهرة.

ولما بلغ حافظ إبراهيم السنّ التي تؤهله لدخول المدارس، أدخله خاله أقرب مدرسة إلى منزله في ذلك الوقت؛ وبها تعلم القراءة، والكتابة، وشيئاً من العربية والحساب والدين. ثم انتقل إلى المدرسة الخيرية بالقلعة، وبها التقى مع الزعيم مصطفى كامل.

وحينما نقل خاله إلى وظيفة مهندس تنظيم بطنطا، انتقل حافظ إلى المدرسة الثانوية بهذه المدينة لاستكمال تعليمه، ولكنه لم ينتظم بها لا انصرافاً عن التعليم وإنما لأن الذي كان يلقاه فيها من دروس لا يتفق وميوله الطبيعية التي وجدها في الجامع الأحمدي بطنطا حيث كان يجلس في حلقات الدرس يتلقى عن الأئمة للعلماء دروساً في علوم اللغة والفقه والشريعة، وتجذبه للغة وآدابها، ويشد الشعر بموسيقاه ووقعه في النفس كل انتباهه، ويملك عليه حواسه؛ فبدأ بدراسة الشعر، واطلع على دواوين الشعراء القدامى ويجد نفسه قد حفظ كل ما تقع عليه عيناه من عيون الشعر والأدب. ثم إذا به بعد قليل يقترض الشعر وينظمه على نحو أثار إعجاب الكثير من الشيوخ الأدباء وذواقي الأدب في مدينة طنطا.(١)

ويبدو أن نفحة الشعر قد باكرته في هذه السن الصغيرة، فأخذ يحلق في سماء القريض بجناحين ضعيفين، فكان يمضي في نظمه حيناً ويكبو حيناً آخر.

شغف حافظ إبراهيم بقراءة كتب الأدب وبخاصة كتاب "الوسيلة الأدبية" للشيخ حسين المرصفي، ويبدو أن هذا الكتاب قد فتن به كثير من ناشئة المتأدبين في ذلك الحين. فهم يذكرون أن الشاعر شوقي كان عماده كتاب "الوسيلة الأدبية" فألمّ

---

(١) راجع مقدمة الديوان ص٢٠: ٢٢ "بتصرف".

بما فيه من مسائل لغوية ومن نصوص شعرية وخاصة ما اتصل بالبارودي[1]

وكان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في سن السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها من معلم أو أديب، ولم يتعلمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحي الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته وبذّ مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.[2]

لم يكتف حافظ إبراهيم بقراءة كتاب (الوسيلة الأدبية) فحسب؛ ولكنه عكف على قراءة الكثير من كتب الأدب العربي وأشبع رغبته منها، وخاصة كتاب "الأغاني" الذي قيل أنه قرأه مرات، وكتاب "المكافأة" وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب، إذ كانت الثقافة التى تلقاها بالمدارس قليلة محدودة، لا غناء فيها، وكان – إلى جانب ذلك – يطيل النظر في دواوين الشعراء ويحفظ متخيرها، ويحسن الوقوع على الشعر الجيد الرائع، يختزنه بين محفوظه، وساعده على ذلك حافظة قوية تسعف ذوقه، وذاكرة حادة تلبى حاجته، وكانت هاتان الحاستان موضع إعجاب أصحابه ومضرب المثل بينهم[3].

فلقد "كان حافظ قوي الحافظة، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم فلم نشهدهم ونلامسهم لأحلْنا ما يُروى عنه في هذا على ما يتزيّد به القصّاص ويسرفون في المبالغة طلباً للإغلاق والإغراب ولقد

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، للدكتور شوقي ضيف ص١٠٥، دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة.

(٢) شعراء الوطنية في مصر تأليف عبد الرحمن الرافعي ص١٢٣: ١٢٤، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، الدار القومية للطباعة والنشر.

(٣) حافظ إبراهيم شاعر النيل، للدكتور عبد الحميد سند الجندي ص٦٩.

كان – رحمه الله– يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرّز، فإذا عيناه تجمزان فيها جمزاً حتى يأتي على غايتها ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك في أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال، فإذا حافظ يروي بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحفه بالزراية لبلوغه الغاية من السهولة والإسفاف".[1]

ولعل من أهم مصادر ثقافة حافظ التي أثرت في اتجاهاته الفنية تلك المجالس التي كان يرتادها؛ فلقد عاشر حافظ من أول فناء البين إلى غاية العمر أعلام الأدب واللغة والعلم والسياسة في عصره، وداخلهم وجالسهم ونادرهم وأخذ عنهم. وناهيك بمن طوى عمره في مصاحبة الإمام محمد عبده وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجي ومحمد المهدي وسامي البارودي ومصطفى كامل وسعد زغلول وأخيه فتحي وقاسم أمين، وإسماعيل صبري وحفني ناصف وأحمد حشمت وعلي يوسف وإبراهيم المويلحي وابنه محمد ... وسواهم من كل من يجري في العلم والأدب على عرق كريم. وكان حافظ متسعر الذهن قوي الحافظة مستقيم الطبع، فأصاب من صحبه أولئك العلماء وطول مذاكرتهم أنفس ما أصاب من ألوان العلم والمعرفة[2].

ولقد كان لمثل هذه المجالس أثرها الواضح في ثقافة حافظ إبراهيم حيث كانت "مجالسهم مدارس من أرقى المدارس، تطرح فيها المسائل العلمية، والمعضلات السياسية والمشكلات الاجتماعية وتعرض فيها الحلول المختلفة، وتبسط فيها أدواء الأمم وكيف عولجت وما إلى ذلك– وحسبك بمدارس كان المعلم فيها محمد عبده وسعد، ومصطفى كامل– ولعل هذا كان

(١) مجلة أبولو، يونية، ١٩٣٣، ص١٣١١.
(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل، للدكتور عبد الحميد سند الجندي ص٧٣: ٧٤.

أكبر منبع استقى منه حافظ أفكاره التي صاغها في شعر.[٣]

تلك هي الثقافة الموسوعية التي اتسعت معها وبها آفاق حافظ إبراهيم، والتي نظر من خلالها إلى الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ومن ثم أكثر القول في علاقة الشاميين والمصريين، وفي الدعوة إلى الإخاء والقضاء على من يبذر بذور البغضاء وفي علاقة مصر بالآستانة وتمنى نهضة الخلافة، ورفع لوائها وعودة مكانتها، وكم شعر في وحدة الشرق وتعاونه وتبادل المنافع بين أقطاره؛ فكان شعره مقرّباً للقلوب داعياً إلى ائتلاف الشعوب ينتهز لذلك كل فرصة، كافتتاح السكة الحديدية الحجازية، وأعياد الدستور للأمة التركية أو حفلات التكريم التي يشترك فيها أدباء الشرق، ونحو ذلك، بل أحياناً يزيد اتساع أفقه، فينظر إلى الإنسانية كلها، كالذي يقوله في زلزال مسّينا.[١]

وهكذا أصبح حافظ إبراهيم صاحب ثقافة واسعة وكبيرة في نواح متعددة ولعل ذلك كان سبباً في نبوغه وتفوقه في الشعر، مما تحدث لنا به وأبرزه في صورة قصائد شعرية، تجعل كل من يتصفحها يقف على مكانة حافظ بين شعراء عصره ويسلّم بأنه علم من أعلام الشعر في تلك الفترة السابقة أو اللاحقة. فهو بحق من أوائل من عبّروا في أشعارهم عن أحوال الناس والمجتمع ورسموهم بصورة خاصة وآلة تصوير حادة تخرج الشكل مجسماً.

فحافظ إبراهيم كان وسطاً بين شعراء الحرية والقومية وشعراء الحرية الشخصية، لم يهمل الناحيتين ولم يبلغ في أحدهما الكمال، فهو شاعر الحياة القومية من كلامه عن الوطن وعن السفور والحجاب وعن فاجعة دنشواي...

(٣) مقدمة الديوان، ص٣٩: ٤٠.
(١) مقدمة الديوان، ص٨١.

ثم هو شاعر الحياة الشخصية في شكواه وهزله وخمرياته ومسجلاته وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات طبعه فليس له في أبناء جيله نظير.[1]

لقد أجاد حافظ إبراهيم في الكثير من أغراض الشعر كالرثاء الذي أجاد فيه كل الإجادة وأحسن كل الإحسان وسبب ذلك أنه استطاع في كثير من الأحيان أن ينقل الرثاء من مسألة فردية إلى مسألة اجتماعية فموت الأستاذ الشيخ محمد عبده نكبة على مصر وعلى العالم الإسلامي وموت مصطفى كامل كارثة على مصر وعلى الوطنية الحقة.[2]

هذا ومن أقوى المصادر التى تأثر بها حافظ إبراهيم، وصور عنها فى شعره – القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة.

أما عن أثر القرآن الكريم فى شعره؛ لغته، وأسلوبه، ومعانيه، وصوره – فواضح جلى فى الكثير منه؛ ولنكتف ببعض النماذج هنا.

فها هو ذا فى قصيدته (الشمس) يتأثر تأثراً بالغاً بما جاء في سورة الأنعام من قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، للعقاد، ص ١٥، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
(٢) المرجع السابق، ص٨٢.

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.)[٣]

فالآيات الكريمة تحمل حواراً دينياً دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه حول ما يعبدونه من كواكب. وكيف اهتدى إبراهيم عليه السلام إلى عبادة خالق هذه الكواكب. ومن ثم تبرأ من عبادة قومه لها.

وقد كانت الشمس والقمر في ظهورهما وأفولهما وسيلة إبراهيم عليه السلام لمعرفة الخالق – جل وعلا – وقد اتخذهما آية في إفحام قومه والرد عليهم وتسفيه ما يعبدون من دون الله. وقد نظم الشاعر حافظ إبراهيم ذلك المشهد القرآني في قصيدة رائعة في وصف الشمس، حيث يقول:

لاَح منها حاجِبٌ للنَّاظِرِينْ ∴ فَنَسُوا باللَّيْلِ وَضَاحَ الجَبِينْ
وَمحَتْ آيَاتُهَا آيَتَهُ ∴ وَتَبَيَّنْتْ فَتَنَةً للعَالَمِينْ
نَظَرَ ابرهامُ فيها نَظْرَةً ∴ فأرَى الشَّكَّ وما ضَلَّ اليَقِينْ[١]
قَالَ: ذا رَبِّي فلمَّا أفَلَتْ ∴ (قَالَ : إِنِّي لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينْ)
وَدَعَا القَوْمَ إلى خالِقِها ∴ وأتَى القَومَ بُسلْطانٍ مُبِينْ
رَبِّ إنَّ الناسَ ضَلُّوا وغَوَوْا ∴ ورَأَوْا في الشَّمسِ رأيَ الخاسِرِينْ
خَشَعَتْ أبصارُهُمْ لمَّا بَدَتْ ∴ وإلى الأذْقانِ خَرُّوا ساجِدِينْ
نَظَرُوا آياتِها مُبْصِرَةً ∴ فَعصَوْا فيها كَلامَ المُرْسَلِينْ
حِكْمَةٌ بالغَةٌ قد مَثُلَتْ ∴ قُدْرَةَ اللهِ لقَومٍ عاقِلِينْ[٢]

والحقيقة أن تلك القصيدة تحمل دلالة قوية على تأثر حافظ إبراهيم بالتصوير والأسلوب القرآنيين. لكنه لم يحاول فيها أن يتعمق المسيرة العقدية

---

(٣) سورة الأنعام. الآيات من ٧٤ : ٧٩.
(١) ابراهام : لغة في إبراهيم. وهو نبي الله إبراهيم عليه السلام. ويشير بذلك إلى ما قصه الله تعالى في القرآن الكريم في سورة الأنعام عن إبراهيم عليه السلام وقومه.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢٠٧: ٢٠٨.

الإنسانية، ويربط بينها وبين الوجود الإنساني؛ ومن ثم أصبح ما نظمه أقرب ما يكون للشعر التعليمي القريب في مأخذه.

هذا، ويتجلى تأثر الشاعر بالقرآن الكريم أيضاً في استعانته بما جاء فيه متعلقاً ببعض الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين – وذلك عندما ينسج صوره الشعرية مستقياً خيوطها مما جاء عن هؤلاء الأنبياء، فيقول عن الإمام محمد عبده، وكان مصاحباً له في بعض أسفاره " في الوجه البحري كثير الأسئلة له، حريصاً على الإفادة منه:

وكنتُ كما كان (ابنُ عِمرانَ) ناشئاً
∴ وكانَ كَمنْ في (سُورَةِ الكَهفِ) يُوصَفُ[1]

فهو هنا يشير إلى قصة نبي الله موسى مع الخضر عليهما السلام، وإكثار موسى على الخضر في الأسئلة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في سورة الكهف.

ويبدو تأثره كذلك عندما يتحدث على لسان بعض المتصوفة إلى معشوقة "شكيب"[2] قائلاً له: إنه إذا تعرض لمكروه دعا إليه بساط سليمان يحمله عليه وتدفعه الريح التي سخرها الله لنبيه سليمان، حتى يراه قريباً منه. يقول حافظ :

عُدْ إلينا فقد أطَلْتَ التَجافي (م) واركبِ البَرْقَ إنْ أطَقْتَ الرُكُوبا
وإذا خِفْتَ ما يُخافُ من البَيْـ (م) ـفرَشْنا لأخْمَصَيْكَ القُلُوبا
ودَعَوْنا بِساطَ صاحبِ يلقيـ (م) ـنَ قلبيَّ دَعاءَنا مُستَجِيبا
وأمَرْنا الرِّياحَ تَجْري بأمْرٍ (م) منكَ حتّى نَراكَ مِنّا قَرِيبا[3]

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١.
(٢) شكيب ، غلام تركي زعموا أنه كان يعشقه هذا المتصوف.
(٣) ديوان حافظ إبراهيم ، ص ١٦١..

فالشاعر في هذه الأبيات متأثر بقوله تعالى (ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ.)[1].

وبلقيس، هي ملكة سبأ. وصاحبها هو نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، وقصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام مشهورة، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة النمل. قال تعالى : (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ.." (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[2].

تلك الآيات الكريمة (٢٣: ٤٤) من سورة النمل تقص علينا قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله.

وهنا نرى كيف استطاع الشاعر أن يوظف بعض عناصر تلك السورة الكريمة لتصوير معشوق ذلك الصوفي مع أنه يهجوه ويصفه بالقبيح من الصفات.

وكذلك نجده يوظف عناصر أخرى من تلك القصة أيضاً، وذلك عندما أراد أن يهنئ سليمان أباظة[3] بالإبلال من مرض ألم به ويعرس نجله "علي بك"، فيقول :

تَرَاءى لكَ الإقْبالُ حتّى شَهِدتَاه ∴ ودان لكَ المِقْدارُ حتّى أمِنْتَاهُ
(سُلَيْمانُ) ذَكَّرْتَ الزّمانَ وأهْلَه ∴ بِعِزِّ (سُلَيْمانٍ) وإقْبالِ دُنْيَاهُ
إذا سِرْتَ يوماً حَذَّرَ النَّمْلُ بَعْضَهُ ∴ مَخَافَةَ جَيْشٍ مِنْ مَوَالِيكَ يَفْشَاهُ
وإنْ كُنْتَ في رَوْضٍ تَغَنَّتْ طُيُورُه ∴ وصَاحَتْ على الأفْنَانِ يَحْرُسُكَ اللهُ

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨١.
(٢) سورة النمل الآيات ٢٣: ٤٤.
(٣) سليمان أباظة، هو ابن حسن أباظة، وكان مولده سنة ١٨٢٤م . وتولى عدة مناصب في الحكومة المصرية، وآخرها نظارة المعارف، وكانت وفاته سنة ١٨٩٧م.

وكان (ابنُ داوُد) له الـرِّيحُ خـادمٌ ∴ وتَخْدُمُكَ الأيّامُ والسَّعْدُ والجاهُ[٤]

ويلاحظ على تلك الأبيات أن ليس هناك ثمة رابطة معنوية أو فنية تربط بين المهنأ " سليمان أباظة " والنبي سليمان عليه السلام. أكثر من أنه سَمّيَه ولا شك أن فى ذلك غلواً وشططاً ملحوظاً. وبخاصة فى تحذير النمل بعضه بعضاً إذا ما أحس " سليمان أباظة " يقول حافظ:

إذا سِرْتَ يوماً حذِّرَ النَّملُ بَعْضَهُ ∴ مَخافةَ جَيْشٍ مِنْ مَوالِيكَ يَغْشاهُ

فالشاعر متأثر هنا بقوله تعالى (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)[١].

هذا ويبدو تأثر حافظ إبراهيم بالقرآن الكريم كذلك، فيما استقاه من سورة يوسف، وما جاء فيها من بصمات قوية ومتعددة، حيث يأتي ذلك أحياناً فى شكل إشارات عاجلة يحكمها الافتعال، ذلك عندما يهنئ الشاعر " رفعت بك" بوكالته لمصلحة السجون فيقول:

أهَنِّيكَ أمْ أشْكُو فراقَكَ قائلاً ∴ أيا لَيْتَنى كُنْتُ السَّجِينَ المُصَفَّدا

فلو كنتَ فى عهد (ابنِ يعقوب) لم يَقُلْ ∴ لصاحبه: اذكُرْنى ولا تَنْسَنى غدا[٢]

فالشاعر فى تأثره بقوله تعالى : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)[٣] يريد أن يقول : إن السجناء يتمنون بقاءهم فى السجن لحسن أخلاقه وجميل عشرته. فلو أنه تولى السجن فى عهد يوسف عليه السلام لفضل البقاء بجانبه

(٤) ديوان حافظ إبراهيم ، ص ٣٧.
(١) سورة النمل ، الآية ١٨.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ، ص ٣٣.
(٣) سورة يوسف، الآية ٤٢.

فى السجن، ولم يقل لصاحبه الذى نجا (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) كما حكى الله تعالى ذلك فى قرآنه الكريم.

ولم تخل خمريات حافظ إبراهيم من التأثر بالقرآن الكريم، فها هو ذا فى قصيدته التى بعث بها إلى محمد المويلحى[1] بك الكاشف المعروف، يقول:

خَمْرَةٌ قِيلَ إِنَّهم عَصَرُوها ∴ مِنْ خُدُودِ المِلاحِ فى يَوْمِ عُرْسِ

مُذْ رَآها فَتَى العَزِيزِ مَنَاماً ∴ وهو فى السِّجْنِ بَيْنَ هَمٍّ ويَأْسِ

أَعْقَبَتْهُ الخَلاصَ مِنْ بَعْدِ ضِيقٍ ∴ وحَبَتْهُ السُّعودَ مِنْ بَعْدِ نَحْسِ[2]

فالشاعر هنا متأثر بقوله تعالى : (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ). وقوله تعالى : (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)[3]، وقد ضمن خمريته قصة السجين الذى رأى فى المنام أنه يعصر خمراً وفسره له يوسف عليه السلام وهو فى السجن، بأنه سيخرج من السجن ويكون من ندامى الملك. فما لبث أن خرج من السجن، وجعله العزيز (صاحب مصر) صاحب شرابه. ومن الواضح أن الشاعر يستعمل هنا ما يسمى فى علم البلاغة بحسن التعليل؛ لأن الواقع يقول: إن الخمر لم تكن هى السبب فى خروجه من السجن، وحسن

---

(١) هو محمد بك ابن إبراهيم المويلحى، ولد بالقاهرة سنة ١٨٥٨م. وبعد أن نفذ حظه من التعليم تولى عدة مناصب فى الحكومة واشترك فى تحرير عدة صحف، وكان هو والده من أعلام الكتاب المشهورين فى مصر فى ذلك. ومحمد بك المويلحى، هذا هو مؤلف كتاب عيسى بن هشام توفى سنة ١٩٣٠م. ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٥٠. وانظر أيضا: حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢٤١: ٢٤٢.

(٣) سورة يوسف ، الآيتان : ٣٦، ٤١.

التعليل كما نعلم هو ذكر سبب خيالي فيه جمال وطرافة لأمر من الأمور أو ظاهرة من الظواهر.

وقد تأثر حافظ إبراهيم كذلك بقوله تعالى في سورة الجن : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1]، وذلك في رسم صورة ممتدة للمدفع وأهواله في قصيدته "دولة السيف ودولة المدفع"، حيث يقول:

ما كَوْكَبُ الرَّجْمِ هَوَى مِنْ عَالِي
فَمُرَّ كَالفِكْرِ سَرَى بالبَالِ
عَلَى عَنِيدٍ مَارِدٍ مُحْتَالِ
مُسْتَرِقٍ لِلسَّمْعِ فِي ضَلَالِ
مِنْ عَالَمِ التَّسْبِيحِ والإِهْلَالِ
أَمْضَى وأَنْكَى مِنْهُ فِي القِتَالِ
إِذَا سَرَتْ قُنْبُلَةُ الوَبَالِ
مِنْ فَمِهِ المَحْشُوِّ بالنِّكَالِ[2]

فالشاعر هنا يرسم صورة للمدفع والأهوال التي يحدثها بإرهاب قلوب الأبطال وزعزعة الجبال وإفزاع الأسود وخطف الأرواح، وإرسال كتل النار التي تثير الأهوال.

ولا شك أن الشاعر متأثر في كل ذلك بما جاء في القرآن الكريم في سورة الجن؛ حيث إن الجن كانت تسترق السمع من السماء قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. فلما بعث عليه السلام وأرادت الجن استراق

(١) سورة الجن ، الآيتان ٨، ٩.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢١٠: ٢١١.

السمع كما كانوا يفعلون قبل البعثة رجموا بالشهب. "مسترق السمع في ضلال". فمضمون الصورة التي رسمها الشاعر للمدفع متأثر بصورة الشهب التي منعت الجن من اختراق السماء للسمع.

هذا، وقد عرض لنا الشاعر الصورة السابقة مرة أخرى بأسلوب فيه جزالة وقوة جرس؛ مما يتفق مع طبيعة المشهد الموصوف، وذلك عندما يتحدث عن سفن الأسطول العثماني في قصيدته " تحية الأسطول العثماني "، التي يقول فيها:

وهيَ في الحَرْب قَضاءٌ سابِحٌ ∴ يَدَعُ الحِصْنَ تِلالاً ورِجامـا
ما نُجُومُ الرَّجْمِ مِنْ أبْراجِهـا ∴ إثْرَ عِفْريتٍ مِن الجِنِّ تَرامَى
مِنْ مَرامِيهـا بـأنْكَى مَوقِعـاً ∴ لاَ ولاَ أقْوَى مِراساً وعُراما[1]

ويفتخر حافظ إبراهيم بأول مسلم طار بطائرته، وذلك عندما يتحدث عن طائرة الطيار "فتحي بك". في تلك القصيدة التي كانت قد أعدت لاستقبال ذلك الطيار ، فسقطت به طائرته ومات قبل إتمام رحلته إلى مصر، فرأى حافظ من الوفاء نشر هذه القصيدة بعد موته لتكون له حياً وميتاً، وهي التي يقول فيها:

أهْـلاً بـأوّلِ مُسْـلِمٍ ∴ في المَشْرِقَيْنِ عَلاَ وَطَارْ
النِّيـلُ والبُسْفُورُ فِيـ ∴ ـكَ تَجاذَبا ذَيْلَ الفَخـارْ
يومَ امْتَطَيْتَ بُراقَـكَ الـ ∴ ـمَيْمُونَ واجْتَزْتَ القِفارْ[2]

وهو هنا يكني " بالنيل والبسفور " عن مصر وتركيا التي هي قلب الخلافة الإسلامية ورمز للمسلمين جميعاً.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٧٧: ٣٧٨.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ص ٣٩٠: ٣٩١.

وفى الحقيقة أن الشاعر قد أجاد فى وصف ذلك الطيار وطائرته حيث وصفها بالبراق، وهو الدابة التى ركبها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج، وذلك فى قوله :

يومَ امتطَيْتَ بُراقَكَ الـ ... ـميمُونَ واجتَزْتَ القِفارْ

وكذلك يصفها بالشهاب فى سرعتها. ذلك الذى كان يرسل على كل من يحاول استراق السمع من الجن. فيقول :

مثلَ الشِّهاب أنقَضَّ فى ... آثارِ عِفْرِيتٍ وَ ثارْ[1]

ويتجلى تأثر حافظ إبراهيم بالقرآن الكريم فى استقائه لملامح الجنة، كما جاءت فى القرآن ليشبه بها مظاهر الجمال الدنيوى التى تأسره وتلفت نظره، كتلك الزينة الكبرى التى أقيمت فى حديقة الأزبكية فى مساء ٨ من يناير سنة ١٩٠١ بمناسبة الاحتفال بليلة عيد جلوس الخديوى. فيقول:

باللَيْلَةُ ألْهمتِنى ما أنبِهُ به ... على حُماةِ القَوافِى أيْنَما تاهُوا

إنِّى أرَى عَجَبًا يَدْعو إلى عَجَبٍ ... الدَّهرُ أضْمَرَه والعِيدُ أفْشَاهُ

هل ذاكَ ما وَعَدَ الرحمنُ صفْوَتَهُ ... رَوْضٌ وحُوْرٌ وولدانٌ وأمْواهُ[2]

فالتأثر بالقرآن واضح فى البيت الأخير من الأبيات السابقة، حيث شبه مظاهر الزينة والجمال التى أقيمت بحديقة الأزبكية بتلك المظاهر التى وعد بها الرحمن من اجتباه من عباده. فأعد لهم الجنان والحور العين والولدان والمياه العذبة فى قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)[3]. وقوله جل شأنه :

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٩١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١١: ٢١٣.
(٣) سورة البروج ، الآية ١١.

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)، وقوله تعالى: (وَحُورٌ عِينٌ)[٤].

والآيات الكريمات اللاتى وردت فى القرآن الكريم على هذه الشاكلة كثيرة ومتعددة.

وكذلك قد تأثر حافظ إبراهيم بقوله تعالى – فى وصف ما أعد للمؤمنين فى الجنة – (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[١] – وذلك فى وصفه لإيطاليا فى أثناء رحلته إليها، حيث يقول:

أَرْضُهُمْ جَنَّةٌ وحُـورٌ وولْـدا ∴ نٌ كما تَشْتَهِى ومُلْكٌ كَبِيـرُ[٢]

وأما فى قصيدته (زلزال مَسينا سنة ١٩٠٨م). فنجد الشاعر قد رسم حوادث الزلزال فى مَسينا ووصف الشعب الإيطالى وما لاقى من عنت وعذاب ، وصور الطبيعة هائجة تغلى حقداً، والأرض تبغى، والبحر يطغى، والجبال ترجم وتقذف بشواظ من مارج ودخان، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين تزلزل الأرض زلزالها[٣]. والقصيدة من بدايتها إلى نهايتها تصف لنا ما أحدثه ذلك الزلزال من دمار هالك أتى على كل شىء فى هذه البلدان فأحالها خراباً يباباً، يقول:

بَغَتِ الأَرضُ والجِبَـالُ عليهـا ∴ وطَغَى البحـرُ أيّمـا طُغْيَـانِ
تلك تَغْلِي حِقداً عليهـا فتنْشـ ∴ ـقُّ انْشِقاقاً مِنْ كَثْـرةِ الغَلَيَـانِ

---

(٤) سورة الواقعة ، الآيتان ١٧، ٢٢.
(١) سورة الزخرف، الآية ٧١.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢٢٩.
(٣) الوصف. بشارك فى وضع هذه المجموعة لجنة من ادباء الأقطار العربية، ص ١٠٦، الطبعة الثالثة، دار المعارف.

ثم يقول :

أين (ردجو) وأين ما كان فيها ∴ من مغان مأهولة وغواني
غوجلت مثل أختها وذهاها ∴ ماذهاها من ذلك الثوران[1]

فالشاعر هنا يشير إلى (ردجو) كاتبريا. وهي ولاية في إيطاليا متاخمة للبحر الأيوني، وبوغاز مسّينا وقد هدمها ما انتابها من الزلزال كما هدم أختها مسّينا.

ولقد تأثر حافظ إبراهيم في تصويره لذلك الزلزال الذي وقع في جنوب إيطاليا ببلدة " مسّينا " بقوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)[2]. وذلك في قوله :

خسفت، ثم أغرقت، ثم بادت ∴ قضي الأمر كله في ثواني
وأتى أمرها فأضحت كأن لم ∴ تك بالأمس زينة البلدان[3]

وكذلك نلمح تأثر حافظ إبراهيم بالقرآن الكريم في تضمينه شعره لبعض الآيات القرآنية أو أجزاء منها. وقد كان حافظ بارعاً في هذا التضمين حيث يضع الآية الكريمة في مكانها الصحيح من سياق شعره دون افتعال أو تكلف. ومن ذلك قوله في قصيدته " تحية الأسطول العثماني " والتي أنشدها في مارس سنة ١٩١٠م.

(قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) ∴ طاول الخالق في الكون وسامى[4]

فنجده قد ضمن الشطر الأول من البيت السابق. الآية الكريمة رقم ١٧ من سورة (عبس).

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢١٦ : ٢١٧.
(٢) سورة يونس ، الآية ٢٤.
(٣) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢١٦..
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٧٩.

وكذلك جاء في عتاب وجهه إلى جماعة من أصحابه في قوله:

أصبحتُمُ تُراثاً وألْهاكُمُ التـ (م) كاثُرُ عنّا فسرُّ الْعِدا

ومَنْ كان يُتْعِبه إثراؤه ∴ صديقُ الخصاصةِ لا يُصْطفى[1]

فقد ضمن بيته الأول الآية الأولى من سورة التكاثر. كما ضمّن في البيت الثاني معنى الآية الكريمة (ويُؤْثِرُونَ على أنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[2].

هذا، ويقول في قصيدته التي أنشدها في المهرجان الذي أقيم لتكريم " أحمد شوقي بك" بالأوبرا في إبريل سنة ١٩٣٧م.

عمِلْتَ على نَيْلِ الخُلُودِ فنِلْتَـه ∴ فقُلْ في مقامِ الشُّكْرِ يا ربِّ أوْزِعْ[3]

صادراً عن قوله تعالى بشأن سليمان بن داود عليهما السلام في سورة النمل (فتبسّمَ ضاحكاً مِّن قَوْلِهَا وقَالَ ربِّ أوْزِعْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ)[4].

وكذلك قوله :

وإن شئتِ عنّا يا سماءُ فأقلعي ∴ ويا ماءها فاكففْ ويا أرضُ فابلعي[5]

ففي ذلك البيت إشارة إلى قوله تعالى في سورة هود (وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ويَا سَمَاء أَقْلِعِي)[6].

ويقول في قصيدته التي أنشدها في حفل أقيم بدار الجامعة المصرية لتكريم (خليل مطران بك) بمناسبة الإنعام عليه بالنيشان المجيدي.

فجرى فيه ما جرى من حديثٍ ∴ كانَ بُرْداً على الْحَشا وسَلاَما[7]

حيث جاء الشطر الثاني من البيت متضمناً قوله تعالى: (قُلْنَا يَا نَارُ

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٧.
(٢) سورة التكاثر، الآية رقم ١، وكذلك سورة الحشر، الآية رقم ٩.
(٣) ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٢٥.
(٤) سورة النمل، الآية ١٩.
(٥) ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٢٧.
(٦) سورة هود، الآية ٤٤.
(٧) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٦٠.

كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[٨].

وفى الحقيقة أن مثل هذه التضمينات والإشارات إلى الآيات القرآنية لفظاً ومعنى تضمين معناها كثيرٌ جداً فى شعر حافظ إبراهيم، مما يدلنا دلالة قوية على مدى تأثره بالقرآن الكريم. ومن ثم تتضح لنا الروح الإسلامية فى شعره، فهو يعلم أن القرآن هو قمة البيان والبلاغة، وهو الذى أعجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله. وكان حافظ أشد الشعراء حرصاً على اختيار اللفظ وتذوق جرسه الذى يقع فى أذنه وفى نفسه حين يختاره، وكان حريصاً كذلك على أن تكون ألفاظه فخمة ضخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف.... وكان هذا هو أهم الطوابع الفنية لحافظ.

وقد وجد فى الكلمة القرآنية والأسلوب القرآنى مثله الأعلى وطلبته التى يبغيها؛ فاللفظة القرآنية آسرة بفخامتها وضخامتها، مثيرة بجرسها ورنينها والتكرار فى القرآن سمة فنية للتأكد وإثارة المشاعر، ومن ثم جاءت مطالع قصائده بالذات مصطبغة بالصبغة الدينية، يستعمل ألفاظ الدين والقرآن ليجتذب بها القلوب ويتصيد بها المشاعر. وهو يعلم أن الصيغ الدينية لها فى القلوب وفى الأسماع نغم محبوب جذاب.[١]

أما عن تأثر حافظ إبراهيم بالحديث النبوى فى شعره، فقد جاء قليلاً بالنسبة إلى تأثره بالقرآن الكريم. فمن مظاهر تأثره بالحديث قوله فى شوقى:

لئن عجبوا أن شابَ (شوقى)ولَمْ يَزَل ∴ فَتىَ الهوى والقَلْبِ جَمَّ التَّمتُّعِ
لقد شَابَ مِنْ هَوْلِ القَوافى ووَقْعِها ∴ وإتْيانِـــه بـــالمُعْجِزِ المُتَمَنِّـــعِ

(٨) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.
(١) محاضرات عن حافظ إبراهيم لأحمد الطاهر، ص ٦٢ معهد الدراسات العربية ، القاهرة، ١٩٥٣م.

كما شَيَّبَتْ هُودٌ ذُوابَةَ أَحْمَدٍ ∴ وَشَيَّبَتِ الهَجَّاءُ رَأْسَ المُدَرَّعِ[٢]

فالشاعر فى هذه الأبيات متأثر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "شيبتنى هود والواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت". وفى رواية "هود وأخواتها"[١]؛ وذلك لما ورد فيها من آيات التهديد والوعيد.

وكذلك جاء قول حافظ مخاطباً الإمام محمد عبده ومدافعاً عنه ضد من حمل عليه من أعدائه فى الصحف ورسموا له صوراً تزرى بقدره ، فيقول:

إِنْ صَوَّرُوكَ فإنّما قد صَوَّرُوا ∴ تاجَ الفَخَارِ ومَطْلَعَ الأَنْوارِ
أو نَقَّصُوكَ فإنّما قد نَقَّصُوا ∴ دِينَ النَّبِيِّ محمدِ المُخْتَارِ
لا تَجْزَ عَنَّ فَلَسْتَ أَوَّلَ ماجِدٍ ∴ كَذَبَتْ عليه صَحائِفُ الفُجَّارِ
رَسَمُوا بِذاتِكَ للنَّواظِرِ جَنَّةً ∴ مَحْفُوفَةً بِمَكارِهِ الأَشْعارِ[٢]

فالشاعر هنا يفخر بالإمام محمد عبده، ويُعلى من قدره، ويجعل كل نقص أو عيب يصيبه إهانة لدين محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم نجده فى البيت الأخير من الأبيات السابقة متأثراً بقوله صلى الله عليه وسلم " حفت الجنة بالمكاره"[٣]؛ حيث شبه صور الإمام فى صحفأعدائه وما كتبوه حولها من مستكره الهجو بالجنة التى حفت بالمكاره.

---

(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٢١..
(١) راجع سنن الترمذى فى كتاب التفسير باب سورة الواقعة حديث رقم ٣٢٦٧. طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.
وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، جـ٢/٤٣٥، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢٦ : ٢٧.
(٣) صحيح البخارى فى كتاب الرقاق باب حجبت النار بالشهوات، جـ٢٤/١١. حديث رقم ٦٤٨٧، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

ثانياً – أبرز القضايا التى تناولها فى شعره الإسلامى :

عُرف حافظ إبراهيم بشاعر النيل مع أنه لم يقتصر في أشعاره على مصر وحدها هبة النيل، بل كان شاعر مصر والعروبة والإسلام فتعددت أغراضه التى أشرنا إلى طائفة منها، وكثرت أشعاره، وتنوعت قضاياه، وطنية كانت، أو قومية، أو إنسانية.

"وأما شعره الوطني والاجتماعي والوصفي، فهو ... غرة شعره ووليد شخصيته، وهوى نفسه ولهذا قد علا في أغلبه علواً كبيراً."[1] والحق أن ديوانه لم يقتصر على الشعر الوطني والاجتماعي فحسب، بل يقترن به نزعتان عربية وإسلامية، تبدو الأولى في كثير من قصائده، وخاصة قصيدته التي تكلم فيها بلسان اللغة العربية... وأما النزعة الإسلامية فتبدو في قصيدته العُمرية التي قصرها على عمر بن الخطاب وأعماله."[2] وهى التى نعتمدها ، ونجول خلالها تحت العنوان الآتى:

١ – الحاكم الإسلامى وما ينبغى أن يتوفر فيه من قيم :

لقد تجاوزت أبيات تلك القصيدة المائة والثمانين بيتاً وتعددت أفكارها فجاءت غير مرتبة على حد قول دكتور عبد المحسن بدر في تعليقه عليها "إن الحوادث التي ذكرها حافظ ينقصها حتى مجرد التسلسل التاريخي. إذ هو يبدأها بحادثة مقتله. ثم يتبعها بحادثة إسلامه ثم يذكرها حادثة من هنا وأخرى من هناك بشكل غير مترابط."[3]

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي ص١٩٩. طبع مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٨.
(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر، بقلم الدكتور شوقي ضيف، ص١٠٩.
(٣) التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث، دكتور عبد المحسن طه بدر، ص٢٤٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولكني أزعم أن الذي قصده الشاعر حافظ إبراهيم من سرده لهذه الأحداث هو بيان عظمة عمر بن الخطاب، حاكماً إسلامياً يقتدى به في عدله وورعه وزهده ورحمته وتقشفه وهيبته ورجوعه إلى الحق وتطبيقه لشرائع الإسلام. وحياة عمر – رضى الله عنه – مفعمة بالفضائل وشخصيته مليئة بالقيم والخلال الحميدة، ومواقفه في الإسلام متعددة وعظيمة. والإحاطة بكل شئ منها تتوء بحمله المجلدات، والعمل على ترتيبها واتساقها يُجهد الرواة والمؤرخين – ومن ثم كان تناول حافظ إبراهيم لبعض من هذه المواقف، في "مقتل عمر، عمر وبيعة أبي بكر، عمر وعلي، عمر وجبله بن الأيهم، عمر وأبو سفيان، عمر وخالد بن الوليد، عمر وعمرو بن العاص، عمر وولده عبد الله، عمر ونصر بن حجاج، عمر ورسول كسرى، عمر والشورى. ومثال لزهده، ورحمته، وتقشفه، وورعه، وهيبته، ورجوعه إلى الحق، عمر وشجرة الرضوان." وغاية الشاعر منها هي رسم صورة صادقة ، عظيمة تمثل كافة جوانبه من خلالها.

ولا شك أن هذا الحاكم هو الذي يتمناه الشاعر للأمة الإسلامية في عصره. "فقصيدته هذه التي تعتمد على ذكر عدة حوادث من تاريخ عمر ليس الهدف منها توضيح انفعال معين عن عظمة عمر بحيث يسيطر هذا الانفعال على كل حوادث القصيدة ويوجهها وإنما الغرض من ذكر هذه الحوادث استعراض الصفات الأخلاقية العليا التي ينبغي أن يتصف بها أي خليفة مسلم وضرب الأمثلة على أن عمر يتحلى بهذه الصفات."[1]

هذا، وعندما نقف أمام هذا العمل الفني الجيد للشاعر حافظ إبراهيم يقابلنا كم هائل من المواقف والآراء العظيمة لعمر بن الخطاب الذي هو رمز

---

(١) التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث. للدكتور عبد المحسن طه بدر ص٢٤٥.

عظيم من رموز القوة والعظمة الإسلامية. وقد استطاع الشاعر أن يعبر تعبيراً فنياً حاز درجة عالية من الجودة والإتقان حين استهل قصيدته بإهدائها إلى ساحة الفاروق عمر بقوله:

حسْبُ القوافي وحسْبي حينَ ألْقيها
∴ أنّى إلى ساحَةِ (الفَاروُقِ) أُهديها

ولكن الشاعر بعدما تمثل عظمة المهدي إليه استبشع في مرارة قاسية تلك الجريمة النكراء التي أودت بحياته على يد أبي لؤلؤة المجوسي، غلام المغيرة بن شعبة فسارع بتسجيل ذلك الإحساس مشيراً إلى جريمة قتله فيقول:

مَوْلَى المُغيرَةِ لا جادَتْكَ عادِيَة
∴ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ما جادَتْ غواديها

مَزّقْتَ منه أديماً حشْوُه هِمَمٌ
∴ في ذِمةِ اللّهِ عاليها وماضيها

طَعَنْتَ خاصِرَةَ (الفارُوقِ) مُنْتَقِما
∴ مِنَ الحَنِيفَةِ في أعْلَى مَجاليها

فأصْبَحتْ دَوْلَةُ الإسْلامِ حائِرةً
∴ تشكُو الوَجيعَةَ لمّا ماتَ آسِيها

ولا يفوت الشاعر هنا أن يشير إلى أعداء الأمة الإسلامية الذين يتربصون بها السوء فينبه الأمة إلى خطر الموالي ودورهم في إضعاف دولة الإسلام فهم الذين قتلوا عمر بن الخطاب وكذلك هم الذين قوضوا أركان الدولة الأموية. فيقول:

واللهِ ما غالَها قِدْماً وكادَ لها
∴ واجتثّ دَوْحَتَها إلاّ مَواليها

ولا شك أن هؤلاء الذين يكيدون للأمة الإسلامية من أمثال الموالى موجودون فى كل زمان ومكان.

ثم نجده يشير إلى آراء الخليفة الموفقة التي كثيراً ما كان ينزل القرآن الكريم ليؤيدها. فيقول:

رأيتَ فى الدِّين آراءً مُوَفَّقَةً
∴ فأنزلَ اللهُ قرآناً يُزَكِّيها

ثم يبين أن إسلامه كان عزاً ونصراً للمسلمين ، فيقول:

ويومَ أسْلَمْتَ عَزَّ الحقُّ وارتَفَعَتْ
∴ عن كاهِلِ الدِّينِ أثْقالٌ يُعانِيها

فأنتَ فى زَمَنِ (المُخْتارِ) مُنْجِدُها
∴ وأنت فى زَمَنِ (الصِّدِّيقِ) مُنْجِيها

ثم يحاول الشاعر استعراض بعض المواقف العظيمة التي وقفها عمر في وجه أعداء الأمة الإسلامية ليقيها الفتن والمهالك فيقول:

ومَوْقِفٍ لكَ بَعْدَ (المُصْطَفى) لَفَتَرَقَتْ
∴ فيهِ الصَّحابةُ لمّا غابَ هاديها

بايَعْتَ فيه (أبا بَكْرٍ) فبايَعَه
∴ على الخِلافَةِ قاصيها ودانيها

وأطْفَئْتَ فِتْنَةً لَوْلاكَ لاسْتَعَرَتْ
∴ بينَ القَبائِلِ وانْسابَتْ أفاعِيها

وواضح أنه يشير هنا إلى إخماده للفتنة التي كادت تنشب بين المسلمين في سقيفة بني ساعدة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يشير الشاعر إلى مظهر آخر من مظاهر عظمة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه وهو تقشفه وورعه وعدله وحب الرعية له فهو ليس كغيره من الحكام الذين يحيط بهم الحرس والحجاب فيحجبونهم عن الرعية. فيقول:

وراغ صاحب (كسرى) أن رأى عُمَرًا
∴ بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها
∴ سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى
∴ فيه الجلالة في أسمى معانيها

ثم يقف الشاعر لبيان أعظم ما عرف به الإسلام من تطبيقه العدل في الحكم والشورى في اختيار الحاكم، حيث كان من أعظم ما رآه الفاروق في الحكم رأيه في الشورى. وكيف لا؟ وهو القائل "لا خير في أمر أبرم من غير شورى" ، فقد كان عمر ممن يأخذون بالشورى في أمورهم، وهو أول من قرر قاعدة الشورى في انتخاب الخليفة، فقد سئل عندما طعن عمن يوصي به بعده، فقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعوني في حفرتي فأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر، ولاشيء له من الأمر، وقم على رءوسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد، فاضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا

الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس[1]. وقد أشار حافظ إبراهيم إلى هذه القصة بقوله :

يا رافعاً رايَة الشُورى وحارسَها
∴ جزاكَ ربُّكَ خَيْراً عن مُحبّيها

لمْ يُلْهِكَ النَّزْعُ عن تأييد دولَتِها
∴ وللمَنِيَّةِ آلامٌ تُعانيها

لمْ أنْسَ أمْرَكَ للمِقْدادِ يَحْمِلُه
∴ إلى الجماعةِ إنْذاراً وتَنْبيها

إنْ ظَلَّ بَعْدَ ثَلاثٍ رأْيُها شُعَباً
∴ فَجرِّدِ السَّيفَ واضربْ في هَواديها

فَاعجَبْ لقوةِ نَفْسٍ ليس يَصْرِفُها
∴ طَعْمُ المَنِيَّةِ مُرّاً عن مَراميها

نَرَى عَبِيدَ بَنِي الشُورَى بمَوْضِعِها
∴ فعاشَ ما عاشَ يَبْنيها ويُعْلِيها

وما استَبَدَّ برأيٍ في حُكومَتِه
∴ إنّ الحُكومَةَ تُغْرِي مُستَبِدّيها

رأيُ الجَماعةِ لا تَشْقَى البِلادُ به
∴ رَغْمَ الخِلافِ ورأيُ الفَرْدِ يُشْقيها

وبعد أن أشار الشاعر إلى الطريقة التي أوصى بها الخليفة عمر بن الخطاب لاختيار من يأت بعده ليحكم المسلمين على أسس من العدل

(١) راجع ديوان حافظ إبراهيم، ص ٩١.

والشورى، ينتهي به القول إلى الأمل في أن يظهر في أمة الإسلام الكثير من الحكام أمثال عمر بن الخطاب حتى تعود للأمة عزتها وكرامتها، وتحافظ على أمجادها العظيمة، فيقول:

لَعلَّ في أمةِ الإسلامِ نابتةً ∴ تجلُو لحاضرِها مرآةَ ماضيها
حتّى ترَى بعضَ ما شادتْ أوائلُها ∴ من الصُّروحِ وما عاناهُ بانيها
وحسبُها أنْ ترى ما كان منْ (عُمرٍ) ∴ حتّى يَنَبِّه منها عينَ غافيها[1]

لقد كان عمر متقشفاً زاهداً يعيش عيشة الفقراء والبسطاء من الرعية فهو حاكم المسلمين وراعي شئونهم، لا يتميز عليهم بشيء ولا يؤثر نفسه بشيء دونهم. ومن ثمَّ أصبح أمنية وغاية للشعوب الإسلامية على مدى العصور، ولكن هيهات:

فمنْ يُباري (أبا حفصٍ) وسيرتَه
∴ أوْ منْ يُحاولُ (للفاروقِ) تَشبيها[2]

لقد أعجز الفاروق عمر بن الخطاب من جاء بعده من الحكام عن أن يسير على نهجه وفي الحقيقة إننا لو وقفنا أمام كل بيت من أبيات هذه القصيدة لاستطعنا أن نتبين معنى كريماً مما كان يتصف به الفاروق عمر بن الخطاب رضوان الله عليه. ولكن طبيعة البحث تقتضي منا الإشارة السريعة.

وعلى أية حال فإن تلك القصيدة قد تجلت فيها الروح الإسلامية في أبهى صورها وأعظم حللها لتكون دليلاً قوياً على غلبة الروح الإسلامية بكل جوانبها وحيثياتها في شعر شاعرنا العظيم حافظ إبراهيم.

هذا، وإذا ما انتقلنا مع حافظ إبراهيم إلى بعض الحكام في أيامه،

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٧: ٩٧.

فسنجد احتفاءه بالسلطان عبد الحميد – بصفته امتداداً للخلافة الإسلامية – في قصيدته التي أنشدها تهنئة له بعيد جلوسه، والتي نشرت في سبتمبر ١٩٠١م. وسنلتقي فيها بالكثير من الألفاظ الإسلامية : كعرش الخلافة، ودوحة الإسلام، والمسجدين ، والملك الأعلى، وسبيل الله، والبيت العتيق، ويثرب، وغيرها؛ حيث يقول :

ومثّلَ لى عرشَ الخلافةِ خاطرى
∴ فأرهبَ قلبى والجلالةُ ترهبُ

فقامَ بأمرِ اللهِ حتى ترعرعتْ
∴ به دوحةُ الإسلامِ والشركُ مجدبُ

وقربَ بينَ المسجدين تقرباً
∴ إلى الملكِ الأعلى فنعمَ المقربُ

وكم حاولوا فى الأرضِ إطفاءَ نورِه
∴ وإطفاءُ نورِ الشمسِ منذاكَ أقربُ

فراعهمُ منه بجيشٍ مدجّجٍ
∴ له فى سبيلِ اللهِ والحقِّ مذهبُ

يُدانى شخوصَ الموتِ حتى كأنما
∴ له بينَ أظفارِ المنيةِ مطلبُ

إذا ثارَ فى يومِ الوغى مالَ منكبٌ
∴ من الأرضِ والأطوادِ وانهالَ منكبُ

له من رءوسِ الشمِّ فى البرِّ مركبٌ
∴ ومن ثائرِ الأمواجِ فى البحرِ مركبُ

فدًى لك يا (عبدَ الحميدِ) عصابةٌ
∴ عصتْ أملاً باريها وحزبٌ مثبذبُ

ملكْتَ عليهم كلَّ فجٍّ وأنجـة
∴ فليس لهمْ في البرِّ والبحرِ مَهْـرَبُ
وأسمَعُ في الدُّنيا دعـاءً بنصـره
∴ يرُدِّدُهُ البيْـتَ العتيـقُ ويثْـربُ[1]

فهذه الأبيات تشيد ببعض أعمال السلطان عبد الحميد التي تخدم الإسلام والمسلمين، فهو امتداد للخلافة الإسلامية. والجالس على عرشها. والقائم بما أمر الله. فترعرعت به دوحة الإسلام وأجدب الشرك وأضمحل.

فقد قرب بين المسجدين الأقصى بالشام، والمسجد النبوى بالمدينة المنورة، بخط حديدى لخدمة المسلمين، وختم الشاعر قصيدته بأن الدعاء بالنصر له يتردد في البيت العتيق والمدينة المنورة.

هذا، كما هنأ حافظ إبراهيم السلطان نفسه بتوليته الخلافة، بقصيدة يقول فيها :

أثْنى الحَجيجُ عليـك والحرمـانِ ∴ وأجلَّ عيدَ جلوسـكَ الثقلانِ
أرْضيْتَ ربَّكَ إذْ جعلْتَ طريقَـه ∴ أمْناً وفُزْتَ بنعْمة الرضْـوانِ
وجمعْتَ بالدُّستُور حولَـك أمـةً ∴ شتى المذاهب جمَّةَ الأضْغانِ
فغدَوتَ تسْكُنُ في القلوب وترْتعي ∴ حبَّاتها وتحُلُّ فـي الوجْـدانِ
راعيْتَهُمْ حتَّـى علمْـتَ بـأنَّهمْ ∴ بلَغُوا أشُدَّهُمُ علـى الأزْمـانِ
فجعلْتَ أمْرَ النَّاسِ شُورَى بيْنَهُمْ ∴ وأقمْتَ شرْعَ الواحد الدَّيانِ
لو أنَّهمْ وزَنُوا الجُيُوشَ بمِـشْهَدٍ ∴ رجحتْ بجيْشِكَ كفَّةُ الميزانِ[1]

ثم يقول :

أدْرَكْتُم الدُّسْتُورَ غيرَ مُلـوَّثٍ ∴ بـدَمٍ ولا مُتلطِّخـا بهَـوانِ

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٥: ١٨. أبيات متفرقة.
(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٤٤.

وفعلتُمُ فعلَ الرجالِ وكنتمُ ∴ يومَ الفخارِ كأمّةِ اليابانِ
فتقيئوا ظلَّ الهلالِ فإنّه ∴ دَمُ المبرّةِ واسعُ الإحسانِ
يرعى لموسى والمسيحِ وأحمدٍ ∴ حقَّ الولاءِ وحُرْمَةَ الأديانِ
فخذُوا الموانقَ والعهودَ على هُدَى التـ
∴ ـوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ[٢]

٢ – الخلافة الإسلامية وأثرها (الخلافة العثمانية : نموذجاً) :

كان المسلمون – فى أوائل القرن الماضى – يتوجهون إلى تركيا، كما يتوجهون إلى مكة المكرمة؛ فهذه قلب الإسلام الخافق، وتلك سنده الذى يذود عنه بالسلاح[١]. فلا غرابة أن يقف حافظ إبراهيم إلى جانب الخليفة، فهو الممثل لدولة الخلافة، والجامع لشمل المسلمين، والمدافع عن الإسلام من أجل إعلاء كلمة الدين؛ ومن ثم وجدناه يهنئ السلطان عبد الحميد، ويشيد بأعماله وأمجاده – على نحو ما أشرنا – وهو راضى النفس، فخور بما تقوم به الخلافة بعد فوزها فى حرب اليونان التى انتهت عام ١٨٩٨م[٢].

هذا، وتدخل تركيا فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، فيقف الشعراء إلى جانب تركيا عاصمة الخلافة، يشدون أزرها بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان.

وباشتعال نار الحرب وتضرّمها، كثرت ضحاياها من الجانبين. ويفرض الإنجليز فى مصر على المفكرين والشعراء القيود، حتى لا يعبروا عن مشاعرهم وآرائهم؛ بل قاموا بعزل الخديوى عباس الثانى المعروف

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥ : ٤٦.
(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر للدكتور/ شوقى ضيف، ص ١٠٩.
(٢) راجع دولة الخلافة الإسلامية لعبد الرشيد سالم، ص ١٢٤. وكالة المطبوعات، الكويت.

بولائه للعثمانيين، وتولية السلطان حسين كامل مكانه.

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر ١٩١٨م، يرى حافظ كيف تمزقت الخلافة العثمانية، وتفرق المسلمون أيدى سبا، واستولى الإنجليز والفرنسيون على معابر البسفور، واحتلوا بجنودهم استانبول. يرى حافظ إبراهيم هذا، فيفزعه ويروعه، ويبث آلامه وأحزانه فى قوله:

(أيا صُوفيا) حانَ التَّفرّقُ فانكُرِي
∴ عُهُودَ كِرامٍ فيكِ صَلُّوا وسَلَّمُوا

إذا عُدْتِ يوماً للصَّليبِ وأهلِه
∴ وحَلَّى نواصيكِ المَسيحُ ومَريَمُ

ودُقَّتْ نَواقيسٌ وقامَ مُزَمِّرٌ
∴ مِنَ الرُّومِ فى محرابِه يترنَّمُ

فلا تُنكِرِى عَهْدَ المَآذِنِ إنَّه
∴ على الله من عَهْدِ النَّواقيسِ أكْرَمُ

تَبارَكْتَ ، (بيْتُ القُدْسِ) جَلَّلَكَ آمِنٌ
∴ ولا يأمَنُ (البيْتَ العتيقَ) المُحَرَّمُ

أيَرْضيكِ أنْ تَغْشَى سَنابِكُ خَيْلِهِمْ
∴ حِماكِ وأنْ يَمْتَى (الحَطِيمُ) و(زَمْزَمُ)؟

وكيفَ يَنَالُ المُسْلِمُون وَثِيقَهُم
∴ كتابُكِ يُتْلَى كلَّ يَوْمٍ ويُكْرَمُ؟

نَبِيُّكَ مَحْزُونٌ وبَيْتُكَ مُطْرِقٌ

∴ حَيَاءً وأَنْصَارُ الحَقِيقَةِ نُوَّمُ

عَصَيْنَا وخَالَفْنَا فعاقَبْتَ عَادِلاً

∴ وحَكَّمْتَ فينا اليومَ مَنْ لَيسَ يَرْحَمُ[1]

ويبكي حافظ إبراهيم تلك الأماكن ويناشدها إن هي عادت يوماً للصليب ألا تنسى مجدها العريق في عهد المسلمين، فقد أضحت معابد النصارى في فرح وأمن، ومعابد المسلمين في هلع وخوف. ولذلك يخشى الشاعر أن يمتد ذلك إلى البيت الحرام، فسقوط الآستانة في يد الإفرنج قد يؤدي إلى سقوط ولاياتها.

وهكذا يتضح لنا على ضوء تلك الأشعار التي نظمها حافظ إبراهيم في الخلافة العثمانية؛ ثناء وبكاء – يتضح مدى شيوع الروح الإسلامية في قصائده، متمثلة في كثير من الألفاظ والمعاني الدينية وغيرهما.

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٤٠٢ : ٤٠٣.

٣ – وحدة الصف العربي وتوثيق الروابط بين الأقطار الإسلامية :

أمر الله سبحانه – للحفاظ على الإسلام وأهله وأرضه – بإعداد العدة لإرهاب العدو وصرفه عن التفكير في النيل من المسلمين – في قوله – جل شأنه–: " وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ "(١). ولا ريب أن من أقوى العُدد وحدة الصف، وتوثيق الروابط بين أبناء الأمة الإسلامية وبلدانها؛ وهذا هو ما حرص عليه الإسلام في قوله تعالى: " وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ "(٢).

ولقد كانت قضية الوحدة من أهم القضايا التي عُنى بها حافظ إبراهيم في حياته؛ بدافع من دينه ووطنيته، وقد يتضح هذا الاهتمام في أشعاره في مواطن كثيرة ، ومناسبات مختلفة، كتلك التي أتيحت لتكريم جماعة من السوريين؛ حيث ينطلق داعيا، ومؤكداً على وحدة مصر وسوريا، في قوله:

لمصرَ أم لربوع الشام تنتسبُ ∴ هذا العُلا وهناك المجدُ والحسَبُ
ركنانِ للشرقِ لازالتْ ربوعُهما ∴ قلبُ الهلالِ عليها خافقٌ يجبُ
خِدرانِ للضادِ لم تهتكْ ستورهما ∴ ولا تحولَ عن معناهما الأدبُ
أمُّ اللُّغاتِ غداةَ الفخرِ أمُّهما ∴ وإنْ سألتَ عن الآباءِ فالعربُ
أيرْغبانِ عن الحُسنَى وبينهما ∴ في رائعاتِ المعالي ذلك النَّسبُ(٣)

فالشاعر هنا يشيد بتلك الروابط والوشائج التي تجمع بين هذين القطرين الشقيقين، فلغتهما واحدة، وأصلهما العربي واحد. ومن ثم يدعوهما للوحدة والوفاق تلبية لنداء الإسلام، ونزولاً على مبادئه القوية السمحة.

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠.
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣.
(٣) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢٦٨ : ٢٦٩.

ويقول في قصيدة أخرى:

إنمـــا الـــشّامُ والكنانـــةُ صـــنْوا ∴ ن ورَغْم الخطُوب عَاشَا لِزاما
أمكُـــمْ أمُّنَـــا وقَـــد أرضَـــعتْنا ∴ مِنْ هواها ونَحْنُ نأبَى الفطَاما
قـــد نزلْنـــا جِـــوارَكم فحمَـــدْنا ∴ منكمُ الودّ والنَّـــدَى والـــذِّماما
وحلَلْنا فـــى أرْضـــكم فأصَـــبْنا ∴ مَنْزِلاً مُخْصِباً وأهـــلاً كرامـــا
وغَشِينا ديـــاركم حَيْـــثُ شِـــئْنا ∴ فلَقِينـــا طَلاقَـــةً وابتِـــسامـا
وشَـــرِبنا مـــن نِـــيلكم فنَـــسِينا ∴ ماءَ لُبْنانَ سَلْـــسَلاً والغَمَامـــا
وقَبَـــسْنا مـــن نُـــوركم فكَتَبْنـــا ∴ وأجَـــدْنا نثارنـــا والنِّظَامـــا
وأعَـــادا عَهْـــدَ الرَّشِـــيد لَعَمْـــرِى ∴ سَ فكانا يراعَـــه والحُـــسَامَا
فأشارت فتـــاةُ مـــصْرَ وقالـــت: ∴ قَتَك، لم تَتْرُكى لمِصْرَ كَلاَمَا[1]

فالشاعر في هذه الأبيات يشير إلـــى الـــروابط الوطنيـــة والوشـــائج الإسلامية التى تجمع بين الشام والكنانة، فهما صنوان على الرغم من تلـــك الخطوب التى تعرضتا لها، فلغتهما وأصـــلاهما واحـــد. ولا شـــك أن فـــى وحدتهما وترابطهما حفاظاً على ما دعا إليه الإسلام، وقد تجلى ذلك فيما كان فى جوارهم وودهم وكرمهم، وما غشاهما من طلاقة وابتـــسام لدرجـــة أن شربهما من النيل أنساهما ماء لبنان السلس.

ثم يشير الشاعر إلى ما كانت عليه الأمة الإسلامية فى عهد هـــارون الرشيد ذلك الخليفة الذى كان بعصره حافلاً بالأدباء والـــشعراء. وقـــد شـــبه الشاعر ما كان سائداً فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى بما كان سائداً فـــى

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٦٠.

عهد الرشيد.

ثم نجده يختم قصيدته بالتضرع إلى الله أن يديم ملك عباس ناصراً بساماً فهو حامي الحمى والأمل المرجو فيقول:

واسألُوا اللّـهَ أن يُـديمَ عَلَينَـا ∴ ملك "عباس" ناصراً بَـسّامَا
هـو آمالنـا وحـامي حمانـا ∴ أيّـد اللهُ مُلكَـه وأدامـا. (١)

ولا شك أن عروس قصائد حافظ إبراهيم في مجال توثيق الرابطة الأخوية بين لبنان ومصر، هي تلك القصيدة التي أنشدها في بيروت سنة ١٩٢٩م. ويقول فيها:

لِيَ موطِنٌ في رُبُوعِ النّيلِ أعظمهُ ∴ ولي هُنا في حِماكُمْ مَوطِنٌ ثانِ
إنّي رأيتُ على أهرامِها حُلَلاً ∴ مِنَ الجَلالِ أراها فَوقَ (لُبنانِ)
أقضي المصيفَ بلُبنانٍ على شَرَفٍ ∴ ولا أحُولُ عَنِ المَشتَى (بِحُلوانِ)
علّى أجاوركُمْ في القَولِ مُقتَدياً ∴ بِشاعِرِ الأرزِ في صُنعٍ وإتقانِ
لابدْعَ إنْ أخصبَتْ فيها قَرائحُكمْ ∴ فأعجزَتْ وأعادتْ عَهدَ (حَسّانِ)
تاهتْ بِقَبرِ (صَلاحِ الدّينِ) تُربَتُها ∴ وتاهَ أحياؤُها تيهًا (بِمَطرانِ)
أبَيتَ أُمّيّةُ أنْ تَفنَى مَحامِدُها ∴ على العِدَى وأبَى أبنَاءُ غَسّانِ
لا فَرقَ ما بينَ هُوذِيٍّ يَعيشُ بِه ∴ ومُسلِمٍ ويَهُودِيٍّ ونَصرانِي
ما بالُ دُنيَاهُ لمّا فاءَ وارفُها ∴ عليه قد أدبَرَتْ مِنْ غَيرِ إيذانِ
عَهدُ (الرّشيدِ) (بِبَغدادٍ) عفَا ومضَى ∴ وفي (دِمشقَ) تَطوَى عَهدَ (ابنِ مَروانِ)
لا تَسألَنّ بَعدَه عن عَهدِ (قُرطُبَةٍ) ∴ كيفَ انْمَحَى بينَ أسيافٍ ونِيرانِ
فعَظّموا كلَّ حيٍّ عندَ مَولِدِه ∴ عليكَ للّهِ والأوطانِ دَيّانِ(٢)

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٤.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ، ص ١٣٤: ١٣٩ " أبيات متفرقة من القصيدة".

فتلك قصيدة طويلة، اخترت منها هذه الأبيات لندلل من خلالها على ما تغنى به الشاعر " حافظ إبراهيم " من روابط تربط بين مصر ولبنان، مشيراً إلى وشائجها العربية والإسلامية. فهما موطن واحد حيث ربط الشاعر بين خلال الإجلال والعظمة التى يراها فوق أهرامات مصر وفوق جبال لبنان.. فهو إن قضى المصيف بلبنان على جبالها المرتفعة فلابد أن يكون مشتاه بحلوان.

ثم سرعان ما يذكرنا بعهد حسان بن ثابت الأنصارى. الشاعر المعروف الذى وقف يدافع عن المهاجرين والأنصار بدفاعه عن الإسلام وكأنه يريد أن يقول: إن شاعر الأرز " خليل مطران بك " هو شاعر مصر ولبنان، فتلك الأماكن التى تفخر بأن تربتها تضم قبر صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية وبطل الحروب الصليبية هى نفسها تلك التربة التى يفخر أحياؤها بالشاعر خليل مطران بك.

فلقد استطاع أصحاب تلك الأماكن أن يحققوا الكثير من الأمجاد الإسلامية العظيمة فى عهد بنى أمية. ثم نجده يشير إلى التسامح الذى جاء به الإسلام إلى تلك الأماكن التى يعيش فيها البوذى والمسلم واليهودى والنصرانى دون أدنى فرق بينهم.

ثم يشير الشاعر إلى انقضاء عهد الرشيد وعهد بنى أمية وكذلك عهد قرطبة، كل تلك العهود الإسلامية العظيمة التى ما أضاعها إلا التفرق والاختلاف. ومن ثم فلا سبيل أمامنا إلا الوحدة والتضامن بين شعبينا فى مصر ولبنان.

٤ – الاحتفاء بالشعائر والمناسبات الدينية، وتقدير الدعاة والمصلحين من أبناء الأمة الإسلامية:

أشرنا من قبل إلى أن حافظ إبراهيم تعايش مع أبناء الشعب، وانسجم معهم، وأحس بإحساسهم، وشاطرهم سراءهم وضراءهم. ومن طبيعة الشعوب الإسلامية – وبخاصة في الأحياء الشعبية في كل منها – الاحتفاء بالشعائر الدينية، والاحتفال بالمناسبات الإسلامية؛ التي لا يعد الاهتمام بها، والوقوف عندها؛ ردّةً إلى الماضي؛ أو تخلفاً عن ركب الحضارة؛ أو عجزاً عن النظر إلى الغد، والتسلح للمستقبل؛ إذ إن الاحتفال بهذه ، والاحتفاء بتلك، من أدوات العدة لهذا الغد المأمول، والمستقبل المنشود؛ فهما يوقظان المشاعر الإيجابية لدى الشباب، ويرفعان من روحهم المعنوية، ويُحييان العظيم الجم من المعاني والقيم، التي ينبغي عليهم تمثلها، والأخذ بها ، والسير على دربها، حيث يتسنى لهم أن يبنوا كما بنى سلفهم الصالح، وأن يعيدوا للأمة العربية والإسلامية أمجادها التي يذكرهم بها، ويناشدهم من أجلها حافظ إبراهيم بوازع من دينه، ودافع من وطنيته، في قوله الذي وسمه بـ (نشيد الشباب المسلمين)، والذي ظهرت فيه الروح الإسلامية جلية في ألفاظه ومعانيه وصوره.

أعيدُوا مَجْدَنا دُنْيا ودِينا
∴ وذُودُوا عن تُراثِ المُسْلِمينا
فمَنْ يَعْنُو لَغَيْرِ اللهِ فِينا
∴ ونحنُ بَنُو الغُزاةِ الفاتحِينا
ملَكْنا الأمْرَ فوقَ الأرضِ دَهْرًا
∴ وخَلَّدْنا على الأيامِ ذِكْرَى

أتى (عُمَرٌ) فأنسَ عَدْلَ (كِسْرَى)

∴ كـذلكَ كـانَ عَهْـدُ الرَّاشِـديـنَا

جَنَيْنَا السُّحْبَ فى عَهْدِ الرَّشِـيد

∴ وبَاتَ الناسُ فـى عَـيشٍ رَغِيـدِ

وَطوَّقَت العَوارِفُ كـلَّ جِيـدِ

∴ وكـان شِـعارُنا رِفقـاً ولِينَـا

سَلُوا (بَغْدادَ) والإسـلام دِيـنُ

∴ أكانَ لهـا علـى الـدُّنيا قَـرِينُ

رِجـالٌ للحَـوادِثِ لا تَلِـينُ

∴ وعِلْـمٌ أيَّـدَ الفَـتْحَ المُبِينـا

نعم ، حُق للشاعر أن يطلق على تلك الأبيات نشيد الشبان المسلمين، فهى تشير بمعانيها وألفاظها إلى أمجاد المسلمين وقوتهم على مرّ العصور منذ بداية الإسلام حتى عهد هارون الرشيد، هذا الخليفة الذى فاضت الخيرات وانتشرت المعارف، وأصبحت (بغداد) عاصمة الملك، فريدة زمانها فى أيامه، يأتيها الخراج من شتى أقطار الدنيا. ثم يختم تلك الأبيات بقوله :

فلَسْنا مِنهمُ والشَّرْقُ عانِى

∴ إذا لـمْ نَكْفِـه عَثَـرَاتِ الزَّمَـانِ

ونَرْفَعْه إلى أعلَى مَكَـانِ

∴ كما رَفَعُوه أو نَلْقَـى المَنُونَـا[1]

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٣١٥.

ففي هذين البيتين يشير حافظ إبراهيم إلى ضرورة الوقوف إلى جانب الشرق الأسير. وحمايته من عنت الزمان ليرتفع إلى أعلى مكان، أو تموت في سبيله.

ولما قصيدته التي أنشأها تهنئة للخديوى عباس الثانى بقدومه من الحج " ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م ". فتفيض بالكثير من الألفاظ والمعانى الإسلامية التي أضفاها على الخديوى عباس فى قوله:

فلله ما أبهاكَ في مصر مالياً
∴ ولله ما ألقاكَ في البيتِ مُحْرِماً

أقولُ وقد شاهدتُ ركبَكَ مُشْرِقاً
∴ وقد يَمَّمَ البيتَ العتيقَ المُحَرَّما

مشتْ كعبةُ الدنيا إلى كعبةِ الهُدَى
∴ يفيضُ جلالُ المُلْكِ والدِّينِ منهُما

.....
أسيرُ خلالَ الرَّكْبِ نحوَ حَظيرةٍ
∴ على ربِّها صَلَّى الإلهُ وسَلَّما

إلى خيرِ خَلْقِ اللهِ مَنْ جاءَ ناطقاً
∴ بآياته إنجيلُ عيسى بنِ مَرْيَما[1]

وكذلك جاءت قصيدته " تحية للعام الهجرى " تحمل الكثير من المعانى والألفاظ الإسلامية، حيث يمثل يوم الهجرة حدثاً مهماً من أحداث الإسلام، وقد سرد حافظ إبراهيم فى تلك القصيدة الكثير من الحوادث التى وقعت فى مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، مشيراً إلى هجرة الرسول صلى الله عليه

(١) ديوان حافظ إبراهيم ، ص ٥١.

وسلم من مكة إلى المدينة، وتأسيسه لدولة الإسلام.

يقول حافظ :

أطَلَّ على الأكْوانِ والخَلْقُ تَنْظُرُ
∴ هِـلالٌ رَآهُ المُـسْتَهِلُّونَ فكَبَّـرُوا

تَجَلَّى لهمْ في صُورةٍ زاد حُسْنُها
∴ على الدهرِ حُسْناً أنَّهـا تَتَكَـرَّرُ

.....

وأذْكَرَهُمْ يوماً أغَـرَّ مُحَجَّـلاً
∴ به تَوَّجَ التاريخُ والـمَجْدُ مُسْتَقِرُ

هاجَرَ فيه خيرُ داعٍ إلى الهُدَى
∴ يَحُفُّ به مِـنْ قُـوةِ اللهِ عَسْكَرُ

يُماشِيهِ جِبْرِيلٌ وتَـسْعَى وَراءه
∴ مَلائِكَةٌ تَرْعَـى خُطَـاهُ وتَخْفِـرُ

بُيُسراهُ بُرْهانٌ مِنَ اللهِ سَـاطِعٌ
∴ هُدًى، ويُمْناه الكِتَـابُ المُطَهَّـرُ

فكانَ على أبْوابِ (مَكَّةَ) رَكْبُـه
∴ وفي (يَثْـرِبَ) أنْـوارُه تَتَفَجَّـرُ

.....

وفي عالَمِ الإسْلامِ في كلِّ بُقْعَةٍ
∴ له أثَـرٌ بَـاقٍ ونِكْـرٌ مُعَطَّـرُ[1]

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٣٥١ : ٣٥٢.

هذا، وعلى الدعاة والمصلحين، في كل عصر، تعقد الآمال الكبار؛ لرفع راية الإسلام والنهوض بالوطن، وفي تقدير هؤلاء تقدير للأمة بأسرها، وحث لشبابها على الإقتداء بهم، والسير على دربهم، وحمل الأمانة بعدهم، ليكونوا محل التبجيل والتخليد منهم. وبذلك تتواصل الأجيال وتستمر المسيرة وتتحقق لهم خلافة الله في الأرض.

وقد ارتبط حافظ إبراهيم بالكثير من مصلحي عصره ارتباطاً وثيقاً؛ وبخاصة الشيخ الإمام محمد عبده، الذي حرص على ملازمته، وحضور درسه، وارتياد مجلسه، وأفاد منه أيما إفادة في كثير من العلوم، كما يشير حافظ نفسه في قوله: " فقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره وأرد أنهاره، وألتقط ثماره ..... وكان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته، وينتقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام، ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق .... ولم يزل بعد ذلك همه – رحمه الله – يلقي في الأزهر دروس التفسير، وفي داره دروس الحكمة، حتى مضى لسبيله".(١)

وعزيز على الأمة سقوط نجم من نجومها، ورحيل رمز من رموزها؛ فما بالك إذا كان هذا الرمز صديقاً صدوقاً ، وأستاذاً معطاء من كبار رجال لإصلاح والتجديد في الإسلام ، كالشيخ الإمام بالنسبة لشاعرنا حافظ إبراهيم؟! أجل إن الخطب فادح، والمصاب جلل؛ فلا غرابة أن يبكي فيه كل القيم والفضائل، ويودع معه قوام الحياة ونعيمها، ويندد بمن جهل قدره، وجحد علمه؛ حيث يقول في رثائه:

فلقد كان تأثير الإمام رحمه الله في الشاعر حافظ إبراهيم كبيراً

---

(١) نيال سطيح، ص ١٢١. حافظ إبراهيم، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٥م.

وعظيماً، ولذلك أخذ اليأس يتسرب إلى نفسه بعد وفاة الأستاذ الإمام، حتى ليخشى أن تطول حياته ، كما يقول فى رثائه:

سَلامٌ على الإسْلامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ∴ سَلامٌ على أيامِهِ النَّضِراتِ
على الدِّينِ والدُّنْيا، على العِلْمِ والحِجا ∴ على البِرِّ والتَّقْوَى، على الحَسَنات
لقد كنتُ أخْشَى عادِيَ المَوْتِ قَبْلَهُ ∴ فأصْبَحْتُ أخْشَى أنْ تَطُولَ حياتي
لقد جَهِلُوا قَدْرَ الإمامِ فأوْدَعُوا ∴ تَجالِيدَهُ فى مُسْبَوحِشٍ بفَلاةِ
ولو ضَرَجُوا بالمَسْجِدَيْنِ لأنْزَلُوا ∴ بِخَيْرِ بقاعِ الأرضِ خَيْرَ رُفاتِ
تَبارَكْتَ هذا الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ ∴ أيُتْرَكُ فى الدُّنيا بغَيْرِ حُماةِ؟
تَبارَكْتَ هذا عالَمُ الرُّقِّ قد قَضَى ∴ ولانَتْ قَناةُ الدِّينِ للغَمَزاتِ[1]

فالإمام رحمه الله رمز من رموز الإسلام، وعلم من أعلامه فى هذا العصر، ومن ثم كانت خسارة الإسلام كبيرة بفقده. وقد جاء رثاء حافظ له رثاءً للإسلام الذى فقد بفقده حصناً قوياً له، ومدافعاً أميناً عنه.

---

[1] ديوان حافظ إبراهيم، ص ٤٥٨.

ثالثاً - الخاتمـــــــة:

تناول هذا البحث الحديث عن الروح الإسلامية في شعر حافظ إبـــراهيم فتطرقت للحديث عن نشأته وثقافته، وتأثره بالقرآن الكريم والحديث النبوى، ونزعته الإسلامية الواضحة فى قصيدته العمرية، وألفاظه ومعانيه الإسلامية التى تطرق إليها فى الكثير من أشعاره. وقد أشرت إلـــى إشـــادته بالخلافـــة العثمانية ، وكذلك دعوته للوحدة بين أبناء الأمة، ورثائه للمـــصلحين فيهـــا أمثال الشيخ الإمام محمد عبده وغيره.

أجل، إن حافظ إبراهيم كان شاعراً بطبعه، وقد ظهرت مواهبه الشعرية فى سنٍّ مبكرة. ومع ذلك فلم يقف عند السليقة والإلهام؛ بل أخذ نفسه بمطالعة التراث الشعرى وحفظه – وقد عُرف بقوة حافظته ، واتساع ثقافته – وسار على درب الشعراء الأقدمين ومحاكتهم فى الجيد من إبداعهم، مُضيفاً عليـــه، وسابغاً إياه، بفيض من عبقريته وشاعريته، وبذلك كله استطاع أن يبذّ أقرانه من الشعراء، ويستوى على عرش الشعر فى عصره.

وقد تميز حافظ إبراهيم بتواضعه وشعبيته؛ حيث خالط طبقات الـــشعب عامة، وجالس الأميين والأنباء. وذاق حلو الحياة ومرها: وتقلب فى بؤســـها ونعيمها فجاء شعره في أغراضه ومعانيه صورة لما تقلب فيه.

فلا غرو إذا كان حافظ بحق شاعر الوطنية وشـــاعر الـــشعب وشـــاعر السياسة والاجتماع لم يجاريه في هذا شاعر من شعراء عصره. ويعد حافظ

في الطليعة من شعراء العصر الحديث وقد قلد البارودي وتقبل طريقته منذ تفتحت أكمام شعره، كما قلد كثيراً من الشعراء الغابرين وتأثر بما استظهره من الشعر الرصين. ثم ابتكر في شعره نهجاً تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء قوامه الأسلوب الرائق والمعنى الشائق، وعذوبة الكلمات ورشاقة العبارات، والتجاوب الوثيق بين اللفظ والمعنى. وكان شعره سجلاً للأحداث والمحن السياسية في مصر ومرآة لأحوال وطنه ترى فيه صرخة الوطنية وصرخة الألم وصورة المظاهرات والثورات. فكان لذلك شاعر الشعب."[1]

وكما كان حافظ شاعر الوطنية التي أضفت على شعره هالة من العظمة والمجد؛ كان - بلا مراء - خير ترجمان للشعب في آماله وأحاسيسه وخير مواس له في مآسيه وآلامه. وإلى جانب ذلك كله فهو لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق في جهادهم للحرية. إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح؛ ومن ثم تجلت الروح الإسلامية في شعره فكان من أهم مظاهرها:

(١) تأثره القوي بالقرآن الكريم واستلهامه الكثير من ألفاظه، وتمثله العديد من آياته وقصصه. ولم لا؟ وهو يعلم جيداً أن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والبيان فهو الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثله وهم أهل الفصاحة وأصحاب البيان.

(٢) وجد حافظ في الكلمة القرآنية والأسلوب القرآني مثله الأعلى وطلبته

(١) الأدب العربي الحديث ومدارسه للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص١١٧، الناشر مكتبة الأزهر.

الضالة، فاللفظة القرآنية آسرة بفخامتها وضخامتها مثيرة بجرسها، ورنينها وذلك لما للصيغ الدينية من أثر قوي في القلوب والأسماع.

(٣) كذلك جاءت قصيدته العُمرية التي تناولنا فيها عمر بن الخطاب وأعماله العظيمة مثالاً قوياً يحتذى به، ودليلاً واضحاً على نزعته الإسلامية.

(٤) كثرة معانيه وألفاظه الإسلامية التي جاءت في جُل قصائده.

(٥) تأثره ببعض الأحاديث النبوية وتضمينها في شعره.

(٦) وقوفه بجانب الخلافة العثمانية وإشادته بأعمال السلطان عبد الحميد في خدمة الإسلام والمسلمين. وفزعه وخوفه من تداعي دولة الإسلام بعد استيلاء أعداء الإسلام على البسفور ودخولهم الآستانة عاصمة الخلافة الإسلامية وقلبها النابض.

تم بحمد الله

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين، مكتبة الآداب.

(٢) الأدب العربي الحديث ومدارسه، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر مكتبة الأزهر.

(٣) الأدب العربي المعاصر في مصر، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة التاسعة.

(٤) التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث، للدكتور عبد المحسن طه بدر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

(٦) حافظ إبراهيم شاعر النيل، للدكتور عبد الحميد سند الجندي، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

(٧) حديث عيسى بن هشام، لمحمد المويلحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية.

(٨) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٩) دولة الخلافة الإسلامية، عبد الرشيد سالم، وكالة المطبوعات، الكويت.

(١٠) ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه أحمد أمين وآخرون الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م، الطبعة الثالثة.

(١١) سنن الترمذي، طبعة دار المعرفة، بيروت – لبنان.

(١٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي، طبع مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٤٨م.

(١٣) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، لعباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت.

(١٤) شعراء الوطنية في مصر، تأليف عبد الرحمن الرافعي، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، الدار القومية للطباعة والنشر.

(١٥) شوقي شاعر العصر الحديث، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة.

(١٦) صحيح البخاري، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

(١٧) صحيح مسلم، طبعة الكنز الإسلامي، القاهرة.

(١٨) العامل الديني في الشعر المصري الحديث، للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوي، دار الفكر العربي، مصر.

(١٩) قصة الأدب في العالم، تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، الطبعة الثانية، الهيئة العامة لقصور الثافة، ٢٠٠٢م.

(٢٠) ليال سطيع حافظ إبراهيم، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٥.

(٢١) مجلة أبولو، (يونيه ١٩٩٣).

(٢٢) محاضرات عن حافظ لأحمد الطاهر، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٣م.

(٢٣) الوصف، شارك في وضع هذه المجموعة لجنة من أدباء الأقطار العربية، الطبعة الثالثة، دار المعارف.